بعض الكوارث التي عرفتها وادي زم زمن الحماية

Some of the disasters that Wadi Zem knew in the time of protection

عبد الرزاق الصافي

جامعة محمد الخامس كلية علوم التربية الرباط، rrazaksafi@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/02/07 تاريخ القبول: 2022/02/15 تاريخ النشر:2022/03/31

الملخص: شهدت مدينة وادي زم وبواديها عددا من الكوارث الطبيعية والبشرية خلال القرن العشرين، مما أسفر عن انعكاسات سلبية مست الوضع الديموغرافي بتسببها في مجازر دورية، في ظل افتقار المغرب الى الأدوية ووسائل العلاج، أمام هيمنة الاستعمار الفرنسي الذي كانت له نوايا واضحة في استغلال خيرات الشعب المغربي.

اما نتائج بحثنا المتواضع فتتمثل في أننا خرجنا بخلاصة مؤداها ان وادي زم عانت كما عانى المغرب ككل من عدة مشاكل، حاولت فرنسا مجابهتها باستراتيجية علاجية كانت الى حد ما مفيدة في التغلب على هاته الأوبئة.

كلمات مفتاحية: الأوبئة، الجراد، استراتيجية فرنسا العلاجية.

Summary:The city of oude Zem and its valleys witnessed a number of natural and human disasters during the twentieth century, which resulted in negative repercussions that affected the demographic situation by causing periodic massacres, in light of Morocco's lack of medicines and means of treatment, in front of the dominance of French colonialism, which had clear intentions to exploit the goods of the Moroccan people .

As for the results of our modest research, we came out with the conclusion that oued Zem suffered, as did Morocco as a whole, from several problems, which France tried to confront with a therapeutic strategy that was to some extent useful in overcoming these epidemics.

Keywords: epidemics, locusts, France's treatment strategy.

- **تقديم:**

عرفت وادي زم وبواديها مجموعة من الكوارث الطبيعية والبشرية خلال القرن العشرين، كانت لها انعكاسات سلبية على الوضع الديموغرافي اذ كانت تتسبب في مجازر دورية، في ظل افتقار المغرب الى الادوية ووسائل العلاج، امام هيمنة الاستعمار الفرنسي الذي كانت له نوايا واضحة في استغلال خيرات الشعب المغربي، ومحاولتنا هاته تنطلق من إشكالية مؤداها؛ أين تتجلى اهم التحديات الطبيعية والبشرية التي عرفتها وادي زم خلال القرن العشرين؟ محاولين الإجابة عن هاته الإشكالية بطرح التساؤلات التالية؛ ماهي المشاكل الطبيعية؟ ما هي المشاكل البشرية التي واجهت المنطقة؟ اما أهمية البحث فتتجلى في تعميق معرفتنا بالمجال وما واجهه من صعوبات لما لها من دور فعال في حياة المجتمعات البشرية، فأين يتجلى ذلك؟ وما هي سبل فرنسا في مواجهتها؟

خرجنا بالفرضيات التالية؛

ربما عانت وادي زم من عدة مجاعات

يتوقع ان سكان وادي زم عانوا من ارتفاع الأسعار زمن المجاعات

ربما تعاطى السكان الوادزميون الى اكل مجموعة من نباتات الأرض درءا للجوع.

انطلقنا من اهداف واضحة تتبين في التعريف ببعض المشاكل التي عانت منها الساكنة خاصة تلك المرتبطة بالمجاعات وما تخلفه على السكان من تأثيرات سلبية، كما اننا اتبعنا أسلوبا تاريخيا وصفيا لما عانته الساكنة.

المجاعات:

عرف المغرب على مر تاريخه عدة سنوات من الجفاف مما تسبب في ظهور المجاعة في صفوف ساكنته، وفي هذا السياق يقول محمد القبلي؛ "أن المغرب قد عرف فترات حالكة إن لم تكن مأساوية عبر تاريخه الطويل. وبالفعل فإن الطوارئ المناخية لم تكن لتضاعف من هشاشة المحاصيل الزراعية فحسب ولكنها كانت تؤدي إلى فترات جفاف كارثية تتبعها أوبئة تأتي على اعداد هائلة من السكان" (القبلي محمد، 2011، ص27)، بينما يرى " ابن خلدون ان كثرة الموتان ترتبط بكثرة المجاعات والفتن من اختلال الدول، مما يفضي

الى وقوع الوباء" (أبرهموش محمد ، ص 131). فاذا شهد المغرب مجموعة من المجاعات والاوبئة والكوارث الديموغرافية العديدة والتي لا يخامرنا الشك في انها كانت تخلف نتائج وانعكاسات سلبية على الوضع الديموغرافي بالمغرب، فحسن الوزان يتحدث عن الوباء بقوله؛ "عندما يأتي يذهب بالعدد العديد من الناس" (الوزان الحسن،1983، ص 135)، مما يدل على ان تاريخ المغرب تاريخ العديد من المجاعات والاوبئة، وفي هذا الاطار نجد الضعيف يصف مجاعة ضربت المغرب خلال عام 1737 بقوله؛ " في تلك السنة ماتت عامة الناس بالجوع وعجزت الناس عن دفن موتاهم وكانوا يرمونهم في الأزقة والمزابل" (الرباطي ضعيف محمد، 1986، ص125). وهو ما يبين ان تاريخ المغرب تاريخ العديد من المجاعات حيث كان يظهر " على رأس كل عشر سنوات، او خمس عشرة او خمس وعشرين سنة" (الوزان حسن، 1983،ص 85). وهو ما يبين ان المغرب عرف كوارث أدت الى هلاك عدد كبير من الناس، ولعل ارتفاع درجة الحرارة خلال فصل الصيف بوادي زم، قد ساهم في توفير شروط انتشار الأوبئة والامراض المتعددة والتي كانت تربط بالغيب أي انها عقاب من السماء، جاءت نتيجة لأعمال الناس السلبية والتي تخلف العديد من الاضرار أبرزها تلك الاضرار المرتبطة بسنوات الجفاف وتوالي الأوبئة مما ينعكس على الوضعية الديموغرافية، "وهذا يعني أن الكارثة لا تنزل فجأة من السماء، وإنما هي مرتبطة ارتباطا وثيقا بأعمال الناس. فلئن كانت تعزى إلى القدرة الإلهية الجبارة، فإنها كانت تعتبر أيضا عقابا للإنسان على شروره، وتنكبه عن الطريق السوي والسنة المحمدية" (البزاز محمد امين، 1992،ص347). هذا التصور المنظور به الى الكوارث والأوبئة ليس خاصا بعامة الناس فحسب بل وإنه يرتبط حتى بالفئة الحاكمة ففي " المرسوم الذي الغى به مولاي سليمان المواسم، نرى السلطان يقيم علاقة مباشرة بين انتشار المناكر ونزول المصائب. إن البدع والمناكر إذا فشت في قوم أحاط بهم سوء كسبهم، وأظلم ما بينهم وبين ربهم، وانقطعت عنهم الرحمات، ووقعت العلات، وشحت السماء، وسبحت النقماء، وغيض الماء، واستولت الأعداء، وانتشر الداء، وجفت الضروع، ونقصت بركة الزروع لأن سوء الأدب مع الله يفتح أبواب الشدائد ويسد طريق المنافذ"(البزاز محمد امين، 1992،ص 348) كما عرفت سنوات الجوع تعاطي الناس لتناول عدة نباتات أخرى كالخروب والذي كان يتم استهلاكه حتى من طرف كبار القوم بل وانه يصبح مادة تجارية مهمة، وجذور النبتات التي كانت تغسل ويتم دقها وغربلتها، فأمام "ما كانت

تخلقه المجاعات من نقص في المواد الغذائية، وغلاء في اقتنائها، فقد كان الناس يتوجهون إلى البحث عن مواد بديلة من شأنها أن تسد الرمق، وهي في الغالب مواد كانت تستهلك بشكل عادي في المناطق الجنوبية من البلاد لتعودها أكثر من غيرها على اقتصاد القلة والنقص. وكان الناس يقتاتون في وقت المجاعة بما كانت تنبت الأرض من جذور وأوراق وثمار وعساليج، وقد شكلت جذور إيرني أهم ما كان يكثر الإقبال عليه من جذور، وهو عبارة عن نبات ذي أوراق عريضة، تشبه جذوره الفول السوداني غير المقشر، وكان الناس يغسلونها جيدا ثم يضعونها في قدر ماء على النار حتى تنضج، ثم تفرغ من القدر وتجفف على حرارة الشمس، وتطحن فيصنع منها الخبز بعد خلط دقيقها ببعض دقيق القمح أو الشعير أو الذرة أو البلوط...وكثر الإقبال من جهة أخرى على جماميخ... الدوم" (رويان بوجمعة، 2020، ص44)، انطلاقا مما سبق فالساكنة الوادزمية عاشت المعاناة بسبب الجوع مما اضطرها الى تناول مجموعة من الأعشاب البرية ومنها بلوط الغابات والخروب رغم الخطر الذي كان يتربص بهم من قبل سلطات الحماية التي كانت تمنع التقاطها، دون ان ننسى ان الناس تعاطوا لأكل كتارة (الصافي الحاج الكبير، يوم2021/07/24، على الساعة؛09:00)، "ولو ان التمادي في استهلاكها كان يسبب تقرحات معدية قد تؤدي بصاحبها إلى الموت. واضطر كثير من الناس بحثا عن الحبوب، إلى بيع ما كانوا يتوصلون به من حصص السكر مقابل الحصول عليها، في وقت كان فيه المعمرون يرفضون تشغيل العمال مقابل كيلويين من الحبوب. ويخبر من عاشوا هذه المسغبة أن بعضهم كان يعمل طول النهار مقابل غراف من القمح" (رويان بوجمعة، 2020،ص 248). كانت سنوات الجفاف "تدوم أحيانا لفترات طويلة، كان آخرها تلك التي امتدت خمس سنوات بشمال المغرب بين 1878 و1883 وإلى سبع سنوات في الجنوب أي إلى غاية سنة 1885. كما عانت من الاجتياح الكثيف لجحافل الجراد، إذ يذكر نكولا ميشال أنه بين 1800 و1912 اجتاح الجراد 32 مرة جهات مختلفة من البلاد في ظل انعدام إمكانية محاربته" (بياض الطيب، ص190). والجدير بالذكر ان منطقة وادي زم لم تخرج عن هذا الاستثناء حيث عرفت عدة كوارث ارتبطت بالجفاف والذي حسب معتقدات الساكنة يعتبر ظاهرة غيبية وليست ظاهرة طبيعية من خلال القول؛ " من فعول بنادم، من فعلنا" أي ان هذا الجفاف عقاب من الله تعالى لبني البشر على سوء اخلاقهم وتصرفاتهم الشريرة، وعدم الامتثال لله تعالى في جميع مناحي الحياة سواء

الدينية تعبدية، او الاجتماعية والتي ترتبط بالصدق والتسامح وغيرها، وهو ما يظهر من كلام قول محمد الأمين البزاز؛ "فقحط الموسم الفلاحي، وتسلط الجراد، وانتشار الجوع الذي يسوق الناس بالجملة إلى القبر، كل هذا يبرز في مخيلة المعاصرين بصورة عقاب من السماء نزل بسبب خطايا مجهولة" (البزاز محمد امين، 1992، ص347). فهي اذن كوارث عقاب من السماء. "ودائما ما نتج عن هذا الوضع ارتفاع في أسعار القمح وانتكاس حال العباد وتفشي الخراب في البلاد".(بوقطب عبد الغاني، 2021، ص88)، امام هذا الوضع اضطر العديد من السكان الى تناول الكثير من المحرمات كما سبق وان اشرنا كالثعالب والكلاب والقطط والجيف والخنازير البرية، رغم ان سلطات الحماية قامت بتحرير "سوق اللحم بفعل ما أصبح يهدد الماشية من أسباب الهلاك، وفتحت المجال واسعا أمام ذبح المواشي والاستفادة من لحومها في وقت كانت فيه البلاد ترزح تحت وطأة مجاعة طاحنة، فأصبحت الأسواق تكتظ بمئات الرؤوس المعدة للذبح" (رويان بوجمعة، 2020، ص249)، بل وان العديد من هؤلاء الوادزميين يحكون معاناتهم مع مواشيهم خلال سنوات الجفاف، فبعد ان قهروا بانعدام التبن للمواشي يضطرون الى جرها للأسواق للبيع لكن وبسبب غياب الطلب داخل الأسواق يضطر العديد منهم الى ترك البهائم في السوق والعودة الى البيت من خلال القول؛ "اسيب لبهيم في السوق ورجع"،(الشريفي عبد القادر، 2021/07/24، على الساعة؛ 12:00)، كما كان يتم ذبحها على شكل كرع وهي عبارة عن شرطان من الدوم تملء باللحم على شكل خرص فيتم شراءها او توزيعها بالمجان على من لا حول ولقوة لهم على شرائها (الوديعي بوشتى، 2021/07/24، على الساعة؛ 12:00)، فالعديد من السكان من دواوير وادي زم اضطروا الى جر بهائم الى الأسواق في دفعة واحدة، ولعل ذلك يظهر من قول؛ "خيل ولاد موسى بشات مدروسة" (التايكة موحا بالحفيان، 2021/07/24، على الساعة؛ 12:00)، وولاد موسى هؤلاء ينتمون الى قبيلة البراكسة السماعلة، كما ان هناك رواية شفهية تحكي عن شخص توفي رحمه الله تعالى كان يسمى الحاج الصالح الشريفي، الذي كان يملك حصان جميل "زرك أو مكدر هاد سبيب" في إشارة الى علو طوله وجمال شعره، وبسبب الجفاف اضطر صاحبه الى اخده الى السوق ليباع، لكن بعد ذهابه الى السوق وخوفا من ان يقوم احد اقاربه او جيرانه بشراء الحصان واعادته الى القبيلة وما يشكله ذلك من إهانة وانتقاص منه طلب من المشتري الذي كان جزار ان يفقع عين الحصان

حتى يعاب ولا يقدر أي احد على شرائه (الشريفي عبد القادر، 2021/07/24، على الساعة؛ 12:00). عمد سكان وادي زم خلال سنوات الجفاف الى تناول عدة نباتات، والتي "لم تكن هي الأخرى قادرة على احتواء مثل هذه الشدة. لذلك كانت المجاعة تفرض دائما على ضحاياها نظاما غذائيا استثنائيا لا يعمل في الواقع إلا على تسكين آلام الجوع لساعات محدودة ببعض النباتات البرية: من هذه النباتات نبات إيريني(الدغفل) الذي ارتبط اسمه بتاريخ المجاعات الكبرى في المغرب؛ ففي كل مجاعة كان الشغل الشاغل للفقراء الخروج بفؤوسهم إلى الخلاء للبحث عن هذا النبات الذي يساعدهم على البقا. كانت عروقه تسلق بالماء مرارا لإزالة مادته السامة ثم تجفف بأشعة الشمس وتطحن فتعطي دقيقا يصنع منه خبز شديد البياض، لكنه عسير الهضم ويسبب اضطرابات حادة في جسم يكون الجوع قد أضعف مقاومته مما يؤدي إلى الوفاة" (البزاز محمد أمين، 1992، ص357). ومن وجهة نظرنا يمكن القول؛ ان الوضعية الاقتصادية والاجتماعية كانت خلال الفترة المعاصرة جد متأزمة فقد عرفت الجفاف والمجاعات، مما يبين ان ساكنتها عانت وهو ما جعل تلك الساكنة تضل مشتتة لفترات طويلة تسكن الخيام بحثا عن الكلأ لها ولمواشيها، والجدير بالذكر القول ان البلوط عوض "الناس عن الخبز أحسن تعويض، وكان يجلب من غابة المعمورة ويستهلك نيئا أو مقليا. وقد يطحن وتصنع من دقيقه الحريرة أو الخبز. وكان استهلاك البلوط يكتسي أهمية اجتماعية حقيقية، ويرجع الناس إلى الإقبال عليه بكثرة في المجاعات وسنوات الضيق حتى قيل عام البلوط عام مزلوط. وقد شكلت سنة 1930، وهي سنة قلت فيها الأمطار وتكاثرت فيها هجومات الجراد سنة قياسية في استهلاكه... وكان الناس يقبلون على ثمار برية أخرى كحبوب الغاز التي يثمرها الدوم على شكل عناقيد تنضج مع نهاية الصيف، وكانوا ينتشرون في الهضاب المكسوة بالدوم لالتقاطها" (رويان بوجمعة، 2020، ص44). والدليل على ترحال الوادزميين من مجال الى مجال بحثا عن قوتهم وقوت مواشيهم غياب عمارة قديمة بالمنطقة اللهم بعض المداشر، فهذا التشتت بالمجال الوادزمي كان نتيجة الظروف الطبيعية خاصة في ظل تواجد الجراد والصقيع الذي يؤثر على حجم الإنتاج الزراعي على مستوى الحبوب، ويمكن التفصيل في ذلك من خلال الجدول (مؤسسة أرشيف المغرب(H-H036 TITLE OUED-ZEM .salé, sefrou, taza, zerhon, date 1913-1929) التالي:

المتوسط لكل قبيلة			
	الشعير	القمح القاسي	القمح الطري
بني سمير	12	8	8
أولاد بحر الصغار	11	8	8
أولاد بحر الكبار	12	6	7 1/2
المعادنة	12 ½	8	8
أولاد عيسى	12	6	7
موالين دندون	12	8	8
الكناديز	12	8	2

على العكس من ذلك، في أولاد عبدون وموالين بالغراف، ينخفض انتاج المنتوجات الثلاث سواء الشعير او القمح الطري او القمح القاسي، اما وضعية التجارة فوضعها سيئ والاسعار منخفضة، وبخصوص الصناعة فلا وجود لشيء للإبلاغ عنه (مؤسسة أرشيف المغرب(H-H036 TITLE OUED-ZEM .salé, sefrou, taza, zerhon, date 1913-1929). وانطلاقا من كل ذلك فقد تأثر قطاع الحبوب بهذه الكوارث مما ساهم في تدهور الوضع الاقتصادي والاجتماعي بالمنطقة وشأن الانسان الوادزامي مثله مثل شأن الانسان في المغرب ككل، فقد "أدى نقص الأمطار سنة 1929، إلى تراجع نسبة الاحتياطي من الحبوب لدى القبائل بحوالي الثلث. وانعكس هذا الوضع على المساحات المزروعة، فتراجعت خلال سنة 1930 بحوالي 35%. ورغم هذه الظروف لم توزع شركات الاحتياط الأهلي سوى 2.800 ق من الحبوب. وهي كمية لم تكن كافية لتغيير وضعية المساحات المزروعة. وتراجعت الأجور في العمل الفلاحي ما بين أربعة وستة فرنكات لليوم، بسبب وفرة اليد العاملة، وضعف تأهيلها على عكس اليد العاملة القادمة من الجنوب كسوس ودرعة... التي عرفت بجودة المردود لذلك أقبل عليها فلاحو المنطقة" (شكاك صالح،

2010، 232). عرفت المنطقة عدة كوارث ففي معظم دائرة وادي زم انتشر البرد القارس والجراد وهو ما خلف نتائج سلبية على الساكنة، "ففي سنة 1929، أدى نقص الأمطار وهجوم الجراد خلال شهري نونبر ودجنبر إلى تراجع عدد رؤوس المواشي بنسبة 30% بدائرة وادي زم وبنسبة 60% بجهة تادلا" (شكاك صالح، 2010، ص 165)، الا ان الساكنة تأقلمت وتكيفت مع مجالها رغم كل تلك القساوة، وعلى العموم فقد "عاش الفلاح المغربي تحت رحمة الطبيعة المتنقلة، ومعها تقلبت أحواله بين الشدة والرخاء، وتمرس بها، وتدرب على ترويضها، وتعامل مع أرضه بأسلوب رشيد، آخذا بعين الاعتبار قيود وامكانيات الطبيعة. وهكذا نظم الزراعة وإنتاج المواشي على أساس الدورة الزراعية والتنقلات الرعوية، والجمع بين الزراعة والماشية" (بوقطب عبد الغاني، ص 89).

- **الجراد:** عرفت منطقة وادي زم هجوم الجراد على المحاصيل الزراعية والاعشاب بأعداد كبيرة جدا، والتي كانت لا

تبرح المكان الا بعد تتركه احمرا بدون نبات، وقد عمل ضباط ووكلاء الرقابة المدنية خلال شهر ماي بأكمله وخلال النصف الأول من شهر يونيو على محاربة الجراد مما اعطى نتائج ممتازة في هذا الظرف (مؤسسة أرشيف المغرب(H-H036 TITLE OUED-ZEM .salé, sefrou, taza, zerhon, date 1913-1929)، وفي سياق محاربة الجراد قام السيد لوماتر(LE MATRE) المراقب المدني، ورئيس منطقة الحكم الذاتي في وادي زم خلال شهر ماي على القيام بعدة جولات:

- 13 ماي 1930: ايت عبد السلام مع قائد المدفعية حول مخيم عين المعزة.
- 14 ماي 1930: الحوازم لمكافحة الجريمة.
- 15 ماي 1930: القلاع الستيلا لمكافحة الجريمة.
- 17 ماي 1930: بلاد الرباط، بيئر مزوي، سيدي الوفي، أولاد حمادي بالسماعلة.
- 22 ماي 1930: الحوازم، بوجعد مكافحة الجراد والاتصال في تادلة مع السيد الكولونيل لوستال.

- 28 ماي 1930: بلاد الرباط مكافحة الجراد.
- يونيو 1930: قيام السيد(TEYSSTER)، نائب المراقب المدني بجولة في بلاد الرباط والكفاف.
- الاثنين 23 ماي: مكافحة الجراد بواسطة الاحصنة ونقل العدالة الى السماعلة (مؤسسة أرشيف المغرب(H-H036 TITLE OUED-ZEM .salé, sefrou, taza, zerhon, date 1913-1929) عندما ينجم الجوع عن هجوم الجراد، فان" الفقراء يجدون فيه غداء شهيا، فيستهلكونه مسلوقا بعد ان يذر عليه الملح والفلفل والخل" (البزاز محمد امين، 1992، ص358) يظهر لنا ان السكان في مختلف انحاء المغرب وليس في وادي زم فحسب تأقلموا وتكيفوا مع هذا الجراد بل وجعلوا منه غداء لهم ويتضح ذلك أكثر من قول بوجمعة رويان؛ "ووجد المغاربة في الجراد وجبة كانوا يقبلون عليها بنهم كبير، حيث كانوا يذهبون زرافات ووحدانا لجمعه في الأكياس ثم يعودون به ليطبخ في المراجل مع الماء والملح، وبعد ذلك ينشر ليبيس ويصبح جاهزا للأكل. ولا تشكل مواد التعويض هذه، التي كان الناس يقبلون عليها في سنوات الشح والمحل، أية قيمة غذائية، فهي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا تقدم سوى ما يقيم الأود إلى حين، باستثناء البلوط الذي لا تنكر أهميته الغذائية" (رويان بوجمعة، 2020، ص44-45) وحسب قول كاستروا جوزيه دي ان السكان اثناء المجاعات كانوا يتأقلمون مع ظروفهم من خلال قوله؛ " فليس هناك كارثة أخرى تحطم شخصية الانسان وتدمرها كما يفعل الجوع، فإن الفرد إذا استبد به الجوع لا يتورع عن القيام بأي عمل شاذ، إذ يتغير سلوكه من أساسه، كما يحدث لأي حيوان نال منه الجوع" (دي كاستروا جوزيه، 158)، فيضطر العديد من السكان الجياع الى اكل الجيف، اكل الثعالب، والخنزير البري، ضمانا للحياة الا ان العديد منهم أصيب بمجموعة من الامراض الخطيرة والتي أدت بهم الى الموت.

- **وباء التيفوس:** "عرفت جريدة السعادة التيفوس بأنه من الأمراض الخبيثة الطبع المهلكة للبشرية. وغالبا ما كان

مصطلح تيفوس يطلق على عدد من الأمراض المعدية، حتى تمكن بواسيي دي سوفاج من فرزه كداء مستقل إكلينكيا في القرن 18. وهو داء عضال إذا حل ببلاد يهلك جل سكانها، فيتبع الجنود في حركاتها وينتشر في النواحي التي تخيم فيها المجاعة" (رويان بوجمعة، 2020، ص109).

عرفت المنطقة انتشار وباء التيفوس، اذ تم الإبلاغ عن شخصين اصيبا بهذا الوباء بقبيلة السماعلة، وقد نفذت عملية غسل لهذه القبيلة، وسجلت (بوادي زم) 201 حالة شخص أصيب بتفوس، كما عرفت خلال سنة 1936 انتشار قوي لهذا الوباء المسمى بالتيفوس، اذ وصلت الحالات المصابة 10.500 حالة تقريبا (شكاك صالح، 2010، ص 228)، وهو ما يمكننا من القول أن الساكنة الوادزمية عرفت خلال القرن العشرين هذا المرض والذي اذى الى موت مجموعة من الأطفال(بوعزة البركوسي، 2021/06/29، على الساعة؛ 10-12، للإشارة توفي رحمه الله بعد المقابلة بأيام قليلة) والشيوخ. كما ارتفعت الحالات المسجلة لتصل الى حوالي 2510 حالة بواد زم (رويان بوجمعة، 2020، ص212) خلال سنة 1943، اما اعراضه فتظهر في شكل مجموعة من الطفوح على مستوى الجلد، ثم صداع الرأس، وضعف دقات القلب وربما في بعض الأحيان الموت. كان هذا المرض ينتقل الى الانسان بسبب الجوع والهجرة، فقد عرفت واد زم 727 حالة سنة 1945 وهي سنة الجوع وانحباس المطر فقد عرفت البلاد الجفاف، فقد شكلت سنة 1945 سنة الجفاف مما زاد من انتشار الوباء في مختلف الارجاء، خاصة انه كان يصيب الانسان عن طريق عض القمل، وهو ما توصل اليه العالم الفرنسي شارل نيكول، الذي تعرف ان المرض يصل عن طريق القمل عوض الاعتقاد في التقلبات المناخية التي كانت سائدة على انها سبب هذا الداء، فالقمل بعد عضه لجسم الانسان يترك مجموعة من الخدوش التي تسبب دخول المكروبات الى الجسم فيصاب الانسان بالمرض. كما ان هذا الداء كان ينتقل عن طريق العدوى خاصة في أماكن التجمعات البشرية مثل الأسواق والمواسم، التي تكون فيها كل الظروف مواتية لانتقال العدوى. فقد شكل التيفوس اخطر الكوارث التي اصابت المغرب عامة ووادي زم خاصة في بداية القرن العشرين خاصة انه كان يرتبط بسنوات الجفاف وما يواكبه من ظروف لانتقال وانتشار العدوى. انطلاقا مما سبق يمكننا القول ان الوباء يرتبط بالجفاف، فتوالي سنوات الجفاف

يعني وجود الأوبئة التي تساهم في تضرر الناس، ومنها وباء التيفوس الذي انتشر بكثرة في عدة مناطق يوضحها الجدول التالي (رويان بوجمعة، 2020، ص124):

المناطق	عدد الحالات المسجلة1937-1938
الدار البيضاء (بما في ذلك إقليم واد زم)	2952
الرباط	589
الغرب	129
مكناس(بما في ذلك إقليم تافيلالت والأطلس المتوسط)	128
فاس	402
تازة	76
وجدة	64
مراكش	4311
آسفي(مع عبدة وشياظمة)	224
مازيغن(الجديدة)	380
حدود درعة	25
المجموع	**9.280**

- **استراتيجية فرنسا في مكافحة الأمراض والأوبئة:** يتأطر الطب الاستعماري الذي ظهر بالمغرب مع بداية القرن

العشرين ضمن ما يسمى بالطب الكولونيالي، الذي هو عبارة عن مجموعة من الإجراءات الصحية التقنية التي كانت لها انعكاسات ايجابية (Lapeyssonnie, 1988, pp.9)، خاصة ان الدول الامبريالية في اطار تنافسها الاستعماري كانت تهدف الى السيطرة على اكبر عدد من المستعمرات باستعمال أسلوب معالجة فقراء هاته الشعوب.

في هذا الصدد عرف المغرب على مر تاريخه عدة احداث مرتبطة بالأوبئة والامراض فكانت الإجراءات الصحية الملاذ الوحيد للوقاية وعلاج عدة امراض فتاكة الى جانب امراض أخرى انتقلت اليه عن طريق الهجرة الاوربية كالجذري والحساسية (رشاد مولود، 2017، ص121)، ومن هذا المنطلق قامت السلطات

الاستعمارية ابان فترة الحماية بعدة جهود لعلاجها، "فقد شكل التطبيب أداة مهمة لاختراق المجتمع المغربي بكل مكوناته وشرائحه، سواء في البادية أو المدينة... هدفت من ذلك إلى علاج الأمراض التي انتشرت نتيجة لازدياد عدد المعمرين واحتكاكهم بالمغاربة. فقد انتشر الطاعون سنوات 1913- 1917 و1922م في كل البلاد من شمالها إلى جنوبها ومن شرقها إلى غربها، لذلك عملت سلطات الحماية على مكافحة الطاعون، وحاولت أن تعد له أسباب استئصال ما كانت تراه كفيلا بالقضاء عليه، والحد من تفشيه، وقد ارتكزت عملية مكافحة الطاعون على ثلاثة إجراءات:

- القضاء على الفئران بالاصطياد أو التسميم- التلقيح- إحراق المساكن والأمتعة" (رشاد مولود، 2017، ص121-122).

يمكننا ان نجمل مراحل العلاج فيما يلي:

- مرحلة 1912-1930: سميت هذه المرحلة بفترة الوقاية الجماهيرية، وكانت تشرف عليها فرق طبية متنقلة، لعلاج

هذه الامراض (الطاعون، حمى المستنقعات، التيفوس والزهري هذا الأخير "كان منتشرا بكثرة في المناطق التي يقل فيها مستوى التعليم، وتعيش أوضاعا اقتصادية واجتماعية مزرية، وظروف سكن بدائية، بمعنى أن ظروف الحياة العامة، وغياب العلاج الناتج عن جهل المرضى، من أهم العوامل التي تتحكم في الزهري" (رشاد مولود، 2017،ص 122-123). وكان يتم استعمال عدة وسائل كالبغال والخيول خاصة في المناطق المتسمة بوعورتها، والسيارات في المناطق المربوطة بالطرق، وقد مر العلاج عبر عدة مراحل:

- مرحلة 1931- 1946: عرفت هذه المرحلة الاهتمام بالطب الثابت، أي انه تم تجاوز الطب المتنقل المعتمد

على البهائم، ليتم انشاء مستوصفات ومستشفيات. "وقد دشنت هذه الفترة بتأسيس معهد حفظ الصحة، يوم 30 دجنبر من سنة 1930، بمدينة الرباط، من طرف المقيم العام لوسيان سان" (رضون شعايبي).

- مرحلة 1946- 1956: ساهمت الحرب العالمية الثانية في عرقلة المسار الطبي العلاجي، فقد تم تأسيس عدة

عيادات بالعالم القروي ومؤسسات استشفائية بالمدن، وقد ساهمت هذه المؤسسات في" التخفيف من آثار المصائب المؤلمة، في صفوف الفقراء الفارين من جذب وقحط قبائلهم، وكذا الأطفال وخاصة اليتامى المتخلى عنهم والمسنين الذين لا مأوى ومورد لهم" (رضوان شعايبي). والجدير بالذكر القول ان علاج ومكافحة هاته الامراض كانت تعتمد في احايين كثيرة اقتحام المنازل من طرف السلطات الاستعمارية الصحية مما كان يعتبر من طرف المغاربة انتهاك للحرمات مما كان يزيد من احقادهم على المستعمر، "ولعل هذا ما دفع أحد المسؤولين إلى حث القائمين بمكافحة الطاعون على تطبيق آليات الحملة ضد هذا الداء بتحفظ حتى لا يعتبر الناس جانب العنف فيها فقط، وينسوا هدفها الإنساني فيستقبلوا بالعداوة والصدود منفذي الإجراءات الصحية" (رشاد مولود، 2017، ص122). كما كانت تقوم ببناء مجموعة من المستوصفات التي هدفها علاج الناس من هاته الامراض فعلى سبيل المثال مرض الرمد استعمل الفرنسيون في علاجه عدة مراهم مثلا "اهتدت الطبيبة دولانوي في العشرينيات الى استعمال زيت يسمى زيت الشولموكرا وكان يستخرج من حبات تثمرها أشجار من جنوب شرق اسيا. وقد نجح الى حد ما في علاج الرمد والتخفيف من حدته وتمكنت دولانوي حسب قولها أن تزيح ضره عن 25000 مرمود، سيما وأن المصابين كانوا يتحملون فرك الجفون بزيت الشولموكرا لأنه غير محرق وغير مؤلم". اما في وادي زم ونظرا لارتفاع الحالات المصابة بالجذري في مجال تادلا العليا بشكل عام فقد الزم المسؤوليين العسكريين بتوفير الادوية بالمنطقة، كما انه خلال عام 1917 وامام تزايد الحالات المصابة بداء الجذري والملاريا مما فرضعليها التدخل السريع لبناء مستشفى بالمدينة، كما ان علاج القبائل المحيطة بوادي زم كان محدودا نسبيا حيث لم "يتم خلال هذه المرحلة تلقيح سوى 106 من أطفال بني سمير ضد جذري"(شكاك صالح، 2010، ص225)، والجدير بالإشارة الى انه ظهرت العديد من الادوية الأخرى لعلاج هذا المرض، كما تم تعميم العلاج في مختلف المدن وكانت توكل للمعلمين والأساتذة عملية حقن عيون الأطفال بالمراهم لعلاجهم من هذا المرض، ولعل ذلك يظهر من قول صالح شكاك؛ "استمرت سياسة الحماية في الميدان الصحي بالتركيز على احتواء وكبح الأمراض والأوبئة. فلتفادي

انتشار وباء التيفوس الذي ضرب المغرب مع بداية 1938، نهجت المدارس حملة وقائية بالاعتماد على النظافة. وخضع التلاميذ للحلاقة مرة في الأسبوع من طرف حلاق عينته المراقبة المدنية لهذا الغرض، كما خضع التلاميذ للتلقيح ضد التيفوس. وشملت الحملة كذلك أوساط الآباء بالحرص على نظافة أبنائهم خاصة وأن الكثير من التلاميذ كانوا يخترقون الأحياء الأوربية. وساهم المدرسون بدورهم في محاربة الأمراض والأوبئة عن طريق التدخل المباشر بتطبيق وصفات المراهم للعيون وللرؤوس المصابة بالتونية" (شكاك صالح، 2010، ص350-351)، وهو ما يجعلنا نقول ان المؤسسات التعليمية لعبت دورا محوريا في علاج وبث مجموعة من الارشادات الصحية العلاجية، إذ أن "حماية الطفل في الأقسام المدرسية، كانت من ذات الاستعجال البالغ، لما يشكله تجمع الأطفال في القسم أو الساحة أو الداخلية أو المطعم من تسهيل لسريان العدوى، فإن مصلحة الصحة المدرسية كانت تركز اهتمامها على الأمراض الخاصة بالأطفال مثل القرع والرمد وداء السل، وتحاول أن تهيء لها من الأدوية ما ينجع في التوقي منها أو القضاء عليها. وحرصت مصلحة الصحة المدرسية على جعل المدارس، وهي تجمع الأطفال، مراكز مهمة للتفلية والتلقيح عندما يلم بالبلاد طائف من الوباء" (ريان بوجمعة، 2020، ص293). كانت الأولوية في الرعاية الصحية خاصة بأبناء المجتمع الفرنسي الوافد الى مدينة وادي زم، اذ ان الرعاية الصحية لم تكن تمس سوى عدد قليل من الأطفال الوادزميين اذ "لم يكن ينتفع بما في جعبة الأطباء من الوصفات سوى أكابر الناس ووجهائهم، ممن في وسعهم أن يحيطوا ذواتهم وأهلهم بالعناية لدرء ما يتربص بهم من العلل والأمراض، وهم الذين كان في مقدورهم أن يجلبوا ما تتطلبه علاجاتهم من أدوية وعقاقير من بر النصارى" (رويان بوجمعة، 2020، 79)، في حين نجد ان معظم ساكنة القبائل لم تحظى بالعناية الكافية والازمة، ويمكن تفسير محدودية هذا الاهتمام بالمجال القبلي من خلال الإشارة الى ان السلطات الاستعمارية كان هدفها حماية الفرنسيين المعمرين فحسب من كل خطر صحي قد يهددهم ولضمان المزيد من استغلال الثروات، كما ان مختلف الإجراءات الصحية ظلت قليلة اذا ما قورنت بحجم الامراض والاوبئة التي عرفتها المنطقة، "وقد استغرب الفرنسيون وغيرهم من الأوربيين، وهم ينزلون بالمغرب، بعد توقيع الحماية، مما كان يستعمله المغاربة من وسائل العلاج ودرء الأمراض، إذ ألفوهم يجترون طرق العلاج التي وجدوا عليها آباءهم، متشبثين بما نبقى مما أكل عليه الزمن من الوصفات التي تعود في معظمها إلى

عهود خلت، وهي وصفات اصطبغت، أمام ما حاق بالطب من الانتكاس وتوقف الاجتهاد، بما يشبه المزيج من التعاويذ والسحر والخرافات والرقى والتمائم والتنجيم، حتى أصبح من المستحيل التمييز بين الطقوس السحرية والطقوس الطبية" (رويان بوجمعة، 2020، ص 81)، كان اهتمام المستعمر الفرنسي بالمجال الطبي يهدف الى حماية الأوربيين اولا من الأمراض، ثم حماية شعوب هاته البلدان المستضعفة المستعمرة، ولعل ذلك ما حدى بالعديد من المؤلفين الى كتابة مجموعة من الكتب حول الطب الكولونيالي الاستعماري على سبيل المثال لا الحصر كتاب أباتتوتشي حول حفظ الصحة العمومية في المستعمرات والذي نشر من طرف عصبة الأمم سنة 1926. الجدير بنا القول ان الطب كان مرتبطا بالجانب العسكري، فالأطباء كان عليهم تلقي تكوين في مؤسسات عسكرية، وهو الذي اعطى للطبيب سلطة كبيرة منحته الحق في السيطرة على صحة واجساد رعايا المستعمرات (ارلوند دافيد، 1998، ص39). كما "كان من أولى المهام التي أنيطت بالطب الفرنسي، وهو يستقر بالمغرب، ويساعد على احتلال البلاد وتهيئتها لاستقبال الوافدين من المعمرين، أن يكشف عما كان يصيب الإنسان بهذا البلد من ويلات الوباء والمرض، وما كان يكرث حياته هنالك من العلل والآلام المبرحة" (رويان بوجمعة، 2020، ص 108) انطلاقا مما سبق، نستنتج ان السلطات الاستعمارية كان هدفها تأسيس لطب استعماري يهدف الى حماية الاوربيين من المرض الذي من الممكن ان يصيب هؤلاء الأوروبيون الوافدين الى المغرب بغية استغلاله والسيطرة على ثرواته "اذ لم يكن الطب الفرنسي منذ بداية انغراسه بين المغاربة يهدف إلى تطويق ما كان يتحيفهم من الأوبئة والأمراض بشكل يستأصل دابر تلك الآفات، بل كان يرمي كما أشرنا إلى ذلك إلى الحفاظ على حياة الفرنسيين والاستفادة من المغاربة كقوة بشرية بالإضافة إلى تهيئ ظروف أمثل للاستغلال، إذ انصب الاهتمام في الإسعاف الصحي على العناصر الحية والنشيطة من الناس مما عبر عنه كولمباني بقوله: كما هو الشأن بالنسبة لجيش يريد أن يصل مباشرة إلى هدفه ويكون ملزما بالتخلص من كل ما من شأنه أن يعرقل سيره في بعض اللحظات العصيبة، فكذلك الأمر بالنسبة لهذا الإسعاف الصحي الذي عوض أن ينشغل بحثالة البشر والمعتوهين والبؤساء والمرضى الذين لا أمل لهم في الشفاء وحماية العجزة والأطفال، صرف عنايته للحفاظ بلا تأخير على العاملين وذوي النشاط من السكان" (رويان بوجمعة، 2020، ص 409). فهي اذا كانت تهدف الى حماية اليد العاملة من الامراض

التي من المحتمل ان تصيبهم مع التمييز الحاصل بين المغاربة والأوربيين فكل الإجراءات الصحية التي كانت تتخذ كانت قليلة جدا اذا ما قورنت بالإجراءات المبذولة لحماية وعلاج الاوربيين كما ان الاوربيين كانوا معفيين من كل تلك الإجراءات الإدارية الصحية التي كانت تزيد من اذلال المغاربة امام المراقبين الاوربيين، اذ "في الوقت الذي لم تكن فيه المراقبة الصحية تفتش منازل الأوربيين، فإن منازل المغاربة ظلت عرضة لتفتيش مشين يصل أحيانا إلى اقتحام المساكن وإحراق ما بها من الأطمار والأمتعة. وقد تحرق دواوير بأكملها بعد إجلاء سكانها، إذا ثبت احتضانها لعدد كبير من المصابين بداء من الأدواء" (رويان بوجمعة، 2020، ص 410).

- **خلاصة:**

نستنتج على ضوء ما سبق ان مدينة وادي زم عرفت خلال القرن العشرين عدة كوارث ساهمت في ترك انعكاسات خطيرة على سكان، فقد زعزعت التوازن، امام وسائل وأدوات بسيطة تم استعمالها لمواجهة هذه الكوارث، فكانت فرنسا ان نهجت أساليب متطورة لمواجهة هاته الكوارث من خلال تقديم الدقيق مثلا لهم حتى تحافظ على توازن واستقرار المنطقة، خاصة ان جحافل الاستعمار الفرنسي كان هدفها استغلال ثروات المنطقة، مما كان يخلق لها الخوف من كل المشاكل التي ربما تعرقل هذا الاستغلال فكان ان رامت علاج المنطقة من كل الأوبئة والمجاعات.

اثبات المصادر والمراجع:

- ✓ **باللغة العربية:**

➢ الوزان الحسن ،(1983)، وصف افريقيا، ج1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية.

➢ الضعيف الرباطي محمد،(1986)، تاريخ الضعيف (تاريخ الدولة السعيدة)، تحقيق احمد العماري، دار المأثورات، الرباط.

- رويان بوجمعة، (2020)، الطب الكولونيالي الفرنسي بالمغرب 1912-1945، مطابع الرباط نت، الطبعة الثانية.
- البزاز محمد الأمين ،(1992)، تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل واطروحات رقم 18.
- شكاك صالح،(2010)، المغرب العميق ورديغة الكبرى 1873- 1956 مساهمة في دراسة تاريخ الجهات بالمغرب المعاصر، تقديم محمد كنبيب، دار ابي رقراق للطباعة والنشر، الطبعة الأولى.
- رشاد مولود،(2017)، قبائل زمور في مواجهة الاحتلال الفرنسي 1911- 1956 مدينة الخميسات وباديتها نموذجا، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى.
- أرنولد دافيد، (1998)، الطب الإمبريالي والمجتمعات المحلية، ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي، عالم المعرفة، عدد 236.
- القبلي محمد، (2011)، تاريخ المغرب تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب الرباط، مطبعة عكاظ الجديدة- الطبعة الأولى.
- مؤسسة أرشيف المغرب(H-H036 TITLE OUED-ZEM .salé, sefrou, taza, zerhon, date 1913-1929).
- معلمة المغرب، الجزء 13.

✓ **مقالات:**

- أبرهموش محمد، الموت في مغرب ما قبل الاستعمار: ملاحظات على ضوء عوامل كثرة الموتان.
- شعابيي رضوان، قراءة في الإستراتيجية الفرنسية الخاصة بمكافحة الأوبئة بمغرب الحماية، مجلة المنهل.
- كاستروا جوزيه دي، جغرافية الجوع، ترجمة زكي الراشدي، دار الهلال.
- بوقطب عبد الغني ، (يوليوز 2021)،عبد المجيد السامي، الأساليب والأنماط الزراعية بالمغرب قبل وبعد الحماية وأثرها البيئي، مجلة ليكسوس دورية مغربية محكمة متخصصة في التاريخ والعلوم الإنسانية،ISSN :2605-6259، العدد 39، صص: 77-91.

- طيب بياض، الزراعة المغربية خلال مرحلة الحماية الفرنسية، اعمال الندوة الوطنية: الفلاحة في تاريخ المغرب.

✓ باللغة الفرنسية:

Lapeyssonnie, La médecine coloniale, Mythes et réalités, seghers, Paris, 1988.

➢ **الرواية الشفهية:**

الحاج الكبير الصافي- عبد القادر الشريفي- بوشتى وديعي- موحا بالحفيان تايكة- عبد القادر الشريفي- بوعزة البركوسي.